الفصل الثاني

جعجعة العجز

تكاد عقارب الساعة تدق الثانية بعد الظهر حين أنهى (عبد الكريم) اجتماعاً بمكتبه، ولما انفض موظفيه من عنده استرخى على كرسيه ليرتاح من عناء العمل قليلاً.

رجلٌ خمسيني طويل القامة نحيف الجسد، أصابت ظهره انحناءة طفيفة، ذو بشرة سمراء، وعينين سوداوين ارتسمت تجاعيد بسيطة عند زواياها، تميزه نظرات هادئة زادته وقاراً مع لون شعر رأسه الرمادي ولحيته وشاربه القصيرين، كان يرتدي الزي التقليدي الحضرمي؛ (عمامة) مخططة باللونين الأبيض والبني غطت رأسه، وسترة بيضاء ذات أكمام طويلة، و(فوطة) مخططة مختلفة الألوان غطت نصفه السفلي حتى أعلى كعبيه بسنتيمترات قليلة، اعتزازه بتراث أجداده بادياً عليه رغم رسمية مكانته كمدير مؤسسة كبيرة.

بعد لحظات، دخل عليه رجل ثلاثيني، وهو يقول:

-سيدي، لقد أنهيت عقود إيجارات الشهر الماضي.

رد عليه وهو يعتدل على الكرسي:

-جيد يا سهيل، سأقوم بمراجعتها، ابدأ مباشرة بما يخص الشهر الحالي.

-كما تريد سيدي.

تناول الملف منه وبدأ يتصفحه، لكنه لاحظ بأن سهيلاً لا يزال واقفاً مكانه، فقال له:

-ما الأمر؟ هل هناك مشكلة؟

-لِم لا ترتح قليلاً من عناء العمل؟

-لا أستطيع ذلك الآن، الأعمال ستتراكم إن آثرنا الراحة والإقبال على المؤسسة كبير بفضل الله.

-أدرك أن الإقبال كبير يا سيدي، لكنه بسبب تساهلك الدائم مع النازحين، إن استمر الوضع هكذا مع تدهور الوضع الاقتصادي بالبلد أخشى أن تنهار المؤسسة.

-أنا لستُ متساهلاً، بل أحاول أن أساعد بقدر استطاعتي وأخفف بعض المعاناة عنهم.

-تأخر الدفع لمدة شهر يؤثر سلباً على أرباح المؤسسة، لقد انخفضت إلى خمسة في المائة شهرياً.

-لست مقتراً بحق المؤسسة، أدرك تماماً متى يجب أن تتوقف هذه الآلية، ثم أني لا أعامل الجميع هكذا، بل من يتأكد لي وضعهم وظرفهم الذي دفعهم للقدوم للمكلا.

-أنا لا أقول هذا إلا من حرصي على المؤسسة.

ابتسم عبد الكريم ابتسامة صغيرة وقال:

- أشكر لك حرصك يا سهيل لا تقلق، فأنا لن أدخر جهداً لأجلها.

-أعلم هذا يا سيدي، وما تريده سأنفذه.

انصرف سهيل، بينما عاد عبد الكريم لعمله؛ لكنه قطعه حين سمع صوت إطلاق رصاصتين بالخارج، فأسرع نحو النافذة وتطلع نحو الشارع، ورأى حركة الناس المضطربة، ثم وقعت عيناه على سيارتي شاص تحمل عدداً من الملثمين ذو الرايات السوداء وهم يمرون متحفزين

بأسلحتهم متباهين بها حين أطلقوا الرصاصتين في الهواء، قطب جبينه غاضباً وقال لنفسه في حدة:

-متى ستنجو مدينتنا من تسلطكم ويرتاح بالنا لتعود الحياة لأرواحنا؟

عاد بذاكرته نحو سنة للوراء، إلى أيامٍ كان فيها شيء من الحياة قبل أن يخطفها موت مفاجئ.

في مدينة كبيرة كالمكلا روح الحياة تسري بسرعة فائقة ويدب النشاط فيها قبل شروق الشمس، وبعد الفجر تدب في المنازل لمن ذويهم في ميادين العمل والدراسة، ويرتفع ضجيج السيارات بالشوارع رويداً رويداً.

في منزله الكبير وبغرفة المعيشة، جلس عبد الكريم حول السُفرة يتناول إفطاره قبل ذهابه لعمله وبرفقة زوجته (عائشة)؛

امرأة أربعينية شديدة الجمال، اكتسب طارق بياض بشرتها ولون عينيها البنيتين وحدتهما، إلا أنها كانت قصيرة القامة قليلاً، معتدلة القوام، شعرها الغزير الملتحف بالسواد ربطته لتنسدل بعض أطرافه في رقة خلف ظهرها، تلون خديها بحمرة خفيفة إثر استخدامها لمساحيق التجميل، وزينت نحرها بعقد ذهبي، وأقراط كبيرة تدلت من أذنيها، وترن الأسوار الذهبية حول معصميها، كانت مهتمة بمظهرها لتبدو شابة في ربيع العشرينيات.

قال عبد الكريم وهو يبتسم:

-متألقة جداً هذا الصباح يا عزيزتي.

بادلته الابتسامة، وهي تقول:

-أشكرك يا عزيزي.

-أين رُبا؟ ألن توقظيها الآن لتصحبيها للروضة؟

اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

-كما هي عادتك، تريد قُبلتها قبل أن تغادر.

-أليست ابنتي؟ إنها حياة هذا المنزل، أحمد الله أن رزقني بابنة جميلة كأمها بعد هذا العمر، يااااه أخاها يكبرها بنحو سبعة عشر عاماً.

-لولا مرضي وحدوث مضاعفات ما بعد ولادة طارق ما كان هذا ليحدث، ظللنا ننتظر طوال تلك السنوات.

-الحمد لله أنكِ بخير يا عزيزتي، والرزق بيد الرحمن، والحمد لله على ما وهبنا إياه.

-الحمد لله.

-لم تجيبي عن سؤالي.

ابتسمت ابتسامة مائلة وقالت:

-تعرف الإجابة مسبقاً، لن أوقظها الآن، لا يزال الوقت مبكراً.

قال في أسف:

-أووووه، هذا يعني بأنك ستمنعينني من تقبيلها حتى لا تستيقظ كما حدث من قبل، أود أن تودعني قبل ذهابي للعمل.

ضحكت وهي تقول:

-ستكون أول من يستقبلك عند عودتك.

-إن شاء الله، كيف حالها مع الدراسة؟

-لست أخشى عليها فهي طفلة مرحة سريعة الاندماج مع أقرانها؛ لكن المشكلة هي أنها لا تهدأ في الصف أثناء الدرس، شكتها معلمتها أكثر من مرة.

صمت للحظات مفكراً ثم قال:

-إذن يجب عليك أن تعلميها في البيت أيضاً حتى تفهم قوانين الدراسة.

-لا تزال صغيرة يا عبد الكريم، إنها لم تكمل الخامسة، لا أريد أن أرهقها حتى لا تنفر من الدراسة.

-ولأنها صغيرة يجب أن تعلم أن الصف نظام، عليها الالتزام به وأن تكون هادئة، وجهيها دون أن تثقلي عليها.

-لولا إصرارك على إدخالها إلى الروضة ما كنتُ لأفعل، أريدها أن تتمتع بطفولتها.

رد بحزم:

-عائشة، الدراسة والتعود على أجوائها مبكراً سيفيدها ويجعلها تهتم بها.

مطت شفتيها في عدم اقتناع؛ لكنها هزت رأسها مؤيدة لتنهي الحديث، ثم قال في شيء من الضيق:

-وماذا عن طارق؟ هل سيقضي إجازته كلها في النوم والعبث؟

قالت في عتب:

-وماذا تريده أن يفعل؟ إنه في إجازة ما بعد الثانوية وستنتهي بعد شهور قليلة ويلتحق بالجامعة ويعود للدراسة، دعه يسترح ويفعل ما يريد مثل أقرانه.

امتعض وجهه، وهو يقول:

-أها، إذن أنتِ في صفه، حاولتُ إقناعه بأن يستغل إجازته ويلتحق بأي دورة يتعلم فيها علم يطور من فكره ويزيد معرفته ولم أفلح، أهديته السيارة بناء على طلبك وكلي أملٌ بأن يتغير فكره ويدفعه ذلك لنيل العلم فلم يفعل، بل لا يزال يقضي كل وقته مع رفاقه في الأندية الرياضية والرحلات هنا وهناك، ليتني لم أمتثل لطلبك، كل هذا التمادي لأنك تقفين في صفه دائماً وتدللينه كثيراً وتدافعين عنه.

قالت في حدة:

-لِم تقول هذا والكثير من رفاقه أباءهم أقل مكانة منك ولم يبخلوا على أبنائهم بشيء؟ أليس من حقه أن نمنحه ما يريد؟

-وأليس علينا توجيهه للصواب أيضاً؟

-طارق لم يعد طفلاً، إنه شاب سيلتحق بالجامعة ويصبح رجلاً.

-مهما كان عمره فهو بحاجة للتوجيه، وتحقيق جميع رغباته دون قيد مشكلة يا عائشة.

-طالما أننا نستطيع ذلك لِم لا نفعل أم أنك تريده أن يكون أقل شأناً من أقرانه؟

-لن أبخل عليه بشيء، أريده أن يمتثل لأمري، وأريد أن أكون فخوراً به، إنه يتصرف دائماً بلا مسؤولية في كل شيء من الآن، فكيف في المستقبل؟

-سيكون مثل ما تتمنى، لا تقلق.

تنهد وصمت، ثم نهض بعد أن أنهى طعامه وهو يقول:

-سنرى ذلك في حينه، أسأل الله أن يحفظهما ويهديهما، سأنصرف لعملي الآن.

-رافقتك السلامة.

وودع زوجته وغادر المنزل، ثم انطلق بسيارته متجها إلى مؤسسته.

حين وصل، استقبله سهيل فطلب منه تقريراً عن سير عمله، أجابه وهما لا يزالان يسيران:

-طلبات الإيجار في ازدياد كل يوم يا سيدي.

-هل من النازحين أيضاً؟

-أجل، العقارات تكاد تُشغل، كل هذا بفضل الله، المؤسسة ستحقق أرباحاً كبيرة خلال مدة قصيرة.

رد متألماً:

-لا يحق لنا أن نفرح في وقت كهذا، ما يحدث في عدن وغيرها من مدن البلاد مؤلم جداً، ورؤية الناس في شوارع المكلا تزيد ألمي، وضجيج الحرب يرتفع كل يوم، لماذا القتل والقمع هما الحلان الوحيدان لإثبات القوة وإحلال السلام؟

-أعلم أنه واقع مؤلم؛ لكن يا سيدي، لو لم يكن أولئك النازحون مقتدرون لما تقدموا لطلب إيجارات في شقق مناسبة ولائقة.

-ولو كان في مقدورهم البقاء لما غادروا ديارهم، وتركوا ما خلفهم حتى يأتون إلينا، يجب علينا أن نقدر وضعهم ولا نستغل حاجتهم.

-لا يوجد استغلال، إنما هذا حق العمل.

-لا يمكننا التكهن بما هو قادم، الوضع مقلق.

قال دهشاً:

-فيمَ تفكر؟

دخلا المكتب، فجلس عبد الكريم على كرسيه، وهو يقول بحزم:

-سأخفض الإيجارات لمن نزحوا بسبب الحرب في أول شهر لهم.

-لكن هذا سيسبب خسارة كبيرة لنا.

-قلت سأخفض حتى أستطيع موازنة وضع المؤسسة، بعدها سأقرر خطوتي القادمة.

-هذه مجازفة.

-لا تقلق، سأتدبر الأمر.

-كما تريد سيدي.

-أريد أيضاً مقابلة كل مستأجر يتقدم بطلبه لنا، ثم يرافقهم لأماكن العقارات أحد موظفينا، قم بعملك على أكمل وجه.

-حاضر.

غادر سهيل، وأخذ عبد الكريم العقود الموجودة ليتفحصها، قبل مدة قصيرة كان غالبية المستأجرين لديه من مدينته، أما الآن فهم من خارجها.

حين تدق نواقيس الحرب لا أحد يدري إلى أين سيصل صوتها ودوي أصدائها، كيف ستنتهي؟ وماذا سنخسر؟

وفي كل مرة ما نخسره ليس ما يتم تعداده وإحصاء نتائجه المفجعة وحسب، بل يموت معها شيء منا، شيء من إنسانيتنا، شيء من أرواحنا.

من خلف الشاشات وعلى مواقع التواصل وفي أماكن الراحة، اعتادت قلوبنا وعيوننا وأسماعنا كل الأوجاع، نشاهد أبحر الدماء ونرى القتلى والجرحى هنا وهناك، ونسمع أصوات البنادق ودوي الصواريخ وصرخات المستغيثين وأنينهم، و قلوبنا تتجرع الآلام كل يومٍ حتى وصلنا حد الثمالة، وبتنا في حالة سكرٌ لا نحس بشيء، ولا نعي شيئاً، وتعجز عقلونا عن تفسير ما نراه، ما هذا الذي تم؟ ولِمْ؟ لا ندري.

لقد تملك العجز كل ذرة فينا، واعتدنا أن نرى البؤس في ربوع الوطن.

تمتم بذلك وهو يتذكر متابعته للأحداث الجارية في كل أصقاع الوطن ولاسيما (عدن)، وحين يتابع ذلك في منزله وعلى شاشة التلفاز لا أحد يشاركه ما يشاهد، حتى عائشة التي كانت تقول له ناهرة إياه في عصبية:

-لِم تتابع هذه الأخبار التي تسبب الهم يا عبد الكريم؟

يجيبها:

-إن ما يجري هو في وطننا، ولا بد أن نعرف عنه وعن كل شيء حولنا.

تزفر في ضيق، ثم تقول:

-لن تجني شيئاً من معرفتك بكل هذا إلا الكدر، سأذهب لغرفتي.

أما طارق، فكان يجلس برفقته أحياناً غير عابئ بما يشاهده، ينشغل بهاتفه أو حاسبه المحمول ليحادث أصدقائه أو يلعب به وهو يضع السماعة على أذنيه، حضوره حضور جسدٍ لا أكثر، ولم يكن يشغل فكره إلا في كيفية قضاء الإجازة فيما يحب.

حتى خارج منزله، يجد الناس تبحث عما يسري عنها مع تدهور اقتصاد البلد وانقطاعات الكهرباء وسوء الخدمات خلال السنوات الأخيرة، فيرى الكثيرين يهربون من أحاديث الحرب.

وعلى طاولات المقاهي تنعقد (جلسات القمة العربية المصغرة) التي تحل كل مشكلات البلد في دقائق على إيقاعات أحجار الدومينو وأكواب الشاي الدائرة، وينفس الجميع عما في نفسه حول مائدة (النقاشات) دون الوصول لأي شيء.

إنها (جعجعة العجز).

*****